قاعدة حسنة في الباقيات الصالحات

أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني

أبي محمد أشرف بن عبد المقصود

مكتبة أضواء السلف

الطبعة الأولى / ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المحقق

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئا ت أعمالنا من يهده الله فلا مضل الله ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

أما بعد: فهذا سفر جديد ومؤلف نفيس ينشر لأول مرة، للعلامة القرآني والمجاهد الرباني، شيخ الإسلام والمسلمين أبي العباس أحمد ابن تيمي ة رحمه الله، نقدمه للذاكرين والذاكرات عسى أن يجدوا فيه ما يجلب لهم الطمأنينة والسكينة ونزول الرحمة {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ } (الرعد :٢٨) .

ويأتي "التسبيح والتحميد والتهليل وال تكبير " على رأس ذكر الله؛ فهو من أجل منازل الذكر ومراتبها العالية.

فهو غراس الجنة الذي طلب نبي الله إبراهيم الخليل من نبينا صلى الله عليه وسلم أن يخبرنا به ليلة أسري به؛ بقوله : "يا محمد ! أقرئ أمتك مني السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غراسها:

سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر"[1].

جلس عبد الله ابن عمرو وابن مسعود رضي الله عنهم، فقال ابن مسعود : "لأن أخذ في طريق أقول فيه: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر" أحب إلي من أنفق عددهن دنانير في سبيل الله عز وجل، فقال عبد الله بن عمرو: "لأن آخذ في طريق فأقولهن أحب إلي من أن أحمل عددهن على الخيل في سبيل الله"[2].

ويقول عبيد بن عمير رحمه الله: "تسبيحة بحمد الله في صحيفة المؤمن خير من أن تسير أو تسيل معه جبال الدنيا ذهبا"[3].

وأما تحقيق نسبة الكتاب للمؤلف:

فقد أشار المصنف رحمه الله إليه عند كلامه على نفس المسألة؛ حيث يقول: "وقد بسطنا الكلام على حقيقة التسبيح والتحميد ومعنى التسبيح بحمده في غير هذا الموضع"[4].

وهذا الموضع الآخر هو كتابنا هذا.

وقد ذكر هذه القاعدة ابن رشيق رحمه الله بعنوان: **"قاعدة في التسبيح والتحميد والتهليل"**[5].

---

(١) رواه الترمذي (٣٤٦٢) وغيره من حديث ابن مسعود وقال "حسن غريب"؛ وإسناده ضعيف إلا أن له شواهد تقويه، ولذا أورده الألباني في "الصحيحة" (١٠٥).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في "المصنف" (٩٢/٦) بإسناد حسن

(٣)رواه ابن أبي شيبة في "المصنف" (٥٥/٦، ١٦٨/٧) قال: حدثنا ابن عيينة عن عمرو ابن دينار عنه وإسناده صحيح.

(٤)"منهاج السنة النبوية" (١٠٥/٥).

(٥)"أسماء مؤلفات ابن تيمية – ضمن الجامع لسيرة شيخ الإسلام" (٢٤٢).

وبنفس هذا العنوان ذكره العلامة ابن عبد الهادي رحمه الله [1].

وهذا العنوان قريب جدا مما جاء بعنوان المخطوطة **"قاعدة حسنة في الباقيات الصالحات وبيان اقتران التهليل بالتكبير والتسبيح بالتحميد** " وهو ما اعتمدته هنا، لأنه أدل على المحتوى.

والناظر في كلام شيخ الإسلام على هذه القاعدة في مواضع أخرى من كتبه [2] يؤكد بما لا يدع مجالا للشك تطابقه مع ما جاء بكتابنا هذا.

وصف النسخة:

فقد اعتمدت على نسخة وحيدة، تقع ضمن "مجموع" يضم عدة رسائل لشيخ الإسلام، وهو مقتنيات "خزانة رئيس الكتاب" الملحقة بـ"السليمانية" بتركيا وهي تحت رقم (١١٥٣).

وتقع هذه النسخة في ٧ ورقات من هذا المجموع، وهي تمثل الورقات من (١٨٢) إلى (١٨٧ظ) وكل صفحة بها ٢٣ سطرا.

وفي كل سطر ما يقرب ١٥ كلمة، وهي مكتوبة بخط واضح جميل منقوط، وقليلة الأخطاء. **وأما عملنا في التحقيق:**

---

(١)"العقود الدرية" (٥٩).

(٢)راجع: "مجموع الفتاوى" (١٠/٢٥٢-٢٥٤) و(١٦/١١٢-١١٨) و(٢٢/٥٥٠، ٥٥١).

فقد اتخذت هذه النسخة أصلا.

كما قمت بضبط فقرات الكتاب كلها، ونسقت عباراتها ورقمت فقراتها برقم مسلسل ووضعت لها عناوين جانبية.

كما قمت بعزو الآيات ووضع العزو بجوار الآيات، وخرجت الأحاديث والآثار وبينت مرتبتها من حيث القبول والرد.

كما وضعت بعض التعليقات المهمة وأكثرها من كلام شيخ الإسلام من كتبه الأخرى، وبعض المصادر الأخرى

كما صنعت له فهارس للآيات والأحاديث والآثار والموضوعات.

والله تعالى أسأل أن يجعل عملي هذا خالصا لوجهه، وأن يتولانا في الدنيا والآخرة، إنه سميع مجيب.وهو حسبنا ونعم الوكيل

الإسماعيلية في ١١محرم ١٤٢٢هـ

أبو محمد أشرف بن عبد المقصود غفر الله له

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين وسلم تسليما كثيرا دائما إلى يوم الدين.

فصل في الباقيات الصالحات سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر

أفضل الكلام بعد القرآن

١- فقد ثبت في الصحيح[١] عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أفضل الكلام بعد القرآن أربع؛ وهن من القرآن: سبحان الله، والحمد لله ولا إله إلا الله، والله أكبر".

٢- وقد ذكرنا ما يتعلق بمعانيها في مواضع[٢].

٣- والمقصود هنا أن نقول: "التسبيح" مقرون بـ "التحميد" و"التهليل" مقرون بـ"التكبير".

---

(١) الذي في "صحيح مسلم " (٢١٣٧) (١٢) عن سمرة بن جندب بلفظ: "أحب الكلام إلى الله أربع.." الحديث. وأما اللفظ الذي ذكره المصنف فهو عند أحمد (٥/٢٠). وقد صرح بتواتره المصنف، كما في "الرد على المنطقيين" (٣٥) حيث قال: "وتواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يعلم أمته ذكر الله تعالى بالجمل التامة" ثم ذكر الحديث.

وراجع أيضا: مجموع الفتاوى (١٠/٥٥٣).

(٢) راجع: "مجموع الفتاوى" (١٢/٦٧، ١٦/١١٢، ١١٦، ١٧/١٦٩، ١٩/١٢٠، ٢٢/٣٨٩، ٢٤/٢٣١).

التسبيح بحمده سبحانه في القرآن

٤- فإن الله تعالى يذكر في غير موضع "التسبيح بحمده".

٥- كقول "الملائكة": { وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ} (البقرة: من الآية٣٠).

٦- وقوله: {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ} (غافر: من الآية٧).

٧- وقوله: { وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا}(طه: من الآية١٣٠)

٨- وقوله: { وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ} (الطور: من الآية٤٨).

الصلاة تتضمن التسبيح بحمده

٩- ولا ريب أن الصلاة الشرعية تتضمن ما أمر به من التسبيح بحمده.

١٠- كما قد بين النبي صلى الله عليه وسلم ذلك في مثل حديث جرير المتفق عليه[1]:

التسبيح بحمده سبحانه في القرآن

٤- فإن الله تعالى يذكر في غير موضع "التسبيح بحمده".

٥- كقول "الملائكة": { وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ} (البقرة: من الآية٣٠).

٦- وقوله: {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ} (غافر: من الآية٧).

---

(١)البخاري (٥٥٤) ومسلم (٦٣٣) (٢١١).

"لا تضامون": بضم أوله مخففا، أي لا يحصل لكم ضيم حينئذ، وروي بفتح أوله والتشديد من الضم، والمراد نفي الازدحام.

٧- وقوله: { وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا}(طه: من الآية١٣٠)

٨- وقوله: { وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ} (الطور: من الآية٤٨).

اقتران التكبير بالتهليل في الآذان وإذا علا شرفا

١٣- وأما "التكبير" فهو مقرون بالتهليل:

(١) في الأذان؛ فإن المؤذن يكبر ويهلل.

(٢) وفي تكبير الإشراف؛ كان إذا علا نشزا كبر ثلاثا، وقال:

"لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون، صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده". وهو في "الصحيحين"[١].

التكبير على الصفا والمروة وعند ركوب الدابة وفي الأعياد

(٣) وكذلك: على الصفا والمروة[٢].

---

(١)البخاري (٦٣٨٥) ومسلم (١٣٤٤) (٤٢٨).

(أ) في الأصل في بداية الآيتين: (فسبح) بدل (وسبح) وهو خطأ!!

(٢) مسلم (١٢١٨) (١٤٧) من حديث جابر الطويل في صفة حجه صلى الله عليه وسلم وفيه: "ثم خرج من الباب إلى الصفا فلما دنا من الصفا قرأ إن الصفا والمروة من شعائر الله أبدأ بما بدأ الله به فبدأ بالصفا فرقى عليه حتى رأى البيت فاستقبل القبلة فوحدالله وكبره وقال " لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله وحده أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده ثم دعا بين ذلك قال مثل هذا ثلاث مرات." الحديث.

(٤) وكذلك إذا ركب دابة [١].

(٥) وكذلك: في تكبير الأعياد.[٢].

مشروعية التكبير في الأماكن العالية

١٤- والتكبير مشروع في الأماكن العالية، والتسبيح عند الانخفاض

١٥- كما في "السنن"[٣] عن جابر قال: "كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا علونا كبرنا، وإذا هبطنا سبحنا".

١٦- فوضعت الصلاة على ذلك، والمصلي في ركوعه وسجوده يسبح، ويكبر في الخفض والرفع؛ كما جاءت الأحاديث الصحيحة بمثل ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم.

١٧- قول النبي صلى الله عليه وسلم لعدي بن حاتم: "يا عدي ما يفرك؟! أيفرك أن يقال لا إله

---

(١) مسلم (١٣٢٤) (٤٢٥) عن ابن عمر رضي الله عنهما علمهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا استوى على بعيره خارجا إلى سفر كبر ثلاثا ثم قال: "سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون، اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى ومن العمل ما ترضى، اللهم هون علينا سفرنا هذا واطو عنا بعده، اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل، اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنظر وسوء المنقلب في المال والأهل" وإذا رجع قالهن وزاد فيهن: "آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون".

(٢) من ذلك: ما رواه ابن أبي شيبة والمحاملي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يخرج يوم الفطر فيكبر حتى يأتي المصلى وحتى يقضي الصلاة فإذا قضى الصلاة قطع التكبير. راجع "الصحيحة" (١٧٠)

وكان ابن مسعود يقول: الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله، الله أكبر والله أكبر ولله الحمد رواه الدار قطني وابن أبي شيبة"الإرواء" (٦٥٠).

وكان ابن عباس يقول: الله أكبر الله أكبر الله أكبر، ولله الحمد الله أكبر وأجل، الله أكبر على ما هدانا. رواه البيهقي (٣/٣١٥).

(٣) البخاري (٢٩٩٣) من حديث عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال كنا إذا صعدنا كبرنا وإذا نزلنا سبحنا وهو عند النسائي في الكبرى (١٠٣٧٦) وأحمد (٣/٣٣٣).

إلا الله، فهل تعلم من إله إلا الله، ما يفرك؟! أيفرك أن يقال: الله أكبر، فهل من شيء أكبر من الله؟!" رواه "أحمد" و"الترمذي" وغيرهما [1].

التسبيح والتحميد يجمع النفي والإثبات

١٨- فنقول: "**التسبيح والتحميد**" يجمع النفي والإثبات؛ نفي المعايب وإثبات المحامد، وذلك يتضمن التعظيم.

ولهذا قال: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى} (الأعلى:١) .

وقال: {فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ} (الواقعة:٧٤) .

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : "اجعلوا هذه في ركوعكم، وهذه في سجودكم"[2].

وقال: "أما الركوع فعظموا فيه الرب"[3].

---

(١) أحمد (٣٧٨/٤) والترمذي (٢٩٥٣) والطبراني في الكبير (٢٣٦/١٧، ٢٣٧) والطيالسي (١٠٤٠) وصححه ابن حبان (٧٢٠٦) من حديث عدي بن حاتم. وقال الترمذي: "هذا حديث حسن غريب". وصححه الألباني في "صحيح الترمذي" (٢٣٥٣).
ولفظ الترمذي: "ما يفرك أن تقول لا إله إلا الله فها تعلم من إله سوى الله؟قال: قلت: لا قال: ثم تكلم ساعة ثم قال: إنما تفر أن تقول الله أكبر وتعلم أن شيئا أكبر من الله قال: قلت لا قال فإن اليهود مغضوب عليهم، وإن النصارى ضلال".
"ما يفرك" بضم الياء وكسر الفاء يقال أفررته أفره أي فعلت به ما يفر منه ويهرب أي ما يحملك على الفرار وكثير من المحدثين يقولون: بفتح الياء وضم الفاء. والصحيح: الأول؛ قاله الجزري "إنما تفر" من الفرار أي التهرب.. قال الحافظ ابن كثير في "تفسيره" "وقد روي حديث عدي هذا من طرق وله ألفاظ كثيرة يطول ذكرها" "تحفة الأحوذي" (٢٨٧/٨، ٢٨٩).

(٢) أبو داود (٨٦٩) وابن ماجه (٨٨٧) وأحمد (١٥٥/٤) والدارمي (١٣٠٥) وصححه الحاكم (٣٤٧/١، ٣٤٨)، ٥٢٠/٢ وابن خزيمة (٦٠٠)، من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

(٣) مسلم (٤٧٩) (٢٧٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

فـ"التسبيح" يتضمن: التنزيه المستلزم للتعظيم.

و"الحمد" يتضمن: إثبات المحامد المتضمن لنفي نقائصها.

التهليل والتكبير وما يتضمنه كلاهما

١٩- وأما "**التهليل والتكبير**":

فـ"التهليل" يتضمن: اختصاصه بالإلهية وما يستلزم الإله فهذا لا يكون لغيره، بل هو مختص به.

و"التكبير" يتضمن: أنه أكبر من كل شيء.

٢٠- فما يحصل لغيره من نوع صفات الكمال، فإن المخلوق متصف بأنه موجود، وأنه حي وأنه عليم، قدير، سميع بصير، إلى غير ذلك.

٢١- فهو سبحانه أكبر من كل شيء، فلا يساويه شيء في شيء من صفات الكمال، بل هي نوعان: نوع يختص به ويمتنع ثبوته لغيره، مثل كونه رب العالمين، وإله الخلق أجمعين، الأول الآخر الظاهر الباطن، القديم الأزلي، الرحمن الرحيم مالك الملك، عالم الغيب والشهادة.

٢٢- فهذا كله هو مختص به، وهو مستلزم اختصاصه بالإلهية فلا إله إلا هو، ولا يجوز أن يعبد إلا هو، ولا يتوكل إلا عليه ولا يرغب إلا إليه، ولا يخشى إلا هو.

٢٣- فهذا كله من تحقيق لا إله إلا الله.

٢٤- وأما "الله أكبر" فكل اسم يتضمن تفضيله على غيره.

٢٥- مثل قوله: {اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ} (العلق:٣) .

٢٦- وقوله: {فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ} (المؤمنون: من الآية١٤) .

٢٧- وقوله: {وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} (لأعراف: من الآية١٥١) .

٢٨- {وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ} (لأعراف: من الآية١٥٥) .

٢٩- كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لعدي بن حاتم: "أبفرك أن يقال الله أكبر فهل من شيء أكبر من الله"[1].

غلط من قال: إن أكبر بمعنى التكبير

٣٠- وأما قول بعض النحاة إن أكبر بمعنى كبير، فهذا غلط مخالف لنص الرسول صلى الله عليه وسلم ولمعنى الاسم المنقول بالتواتر.

٣١- وكذلك قول بعض الناس أنه أكبر مما يعلم أو يوصف. ويقال: جعلوا معنى "أكبر" أنه أكبر مما في القلوب والألسنة من معرفته ونعته، أي هو فوق معرفة العارفين! وهذا المعنى صحيح لكن ليس بطائل، فإن الأنبياء والرسل والملائكة والرسل والجنة والنار، وما شاء الله من مخلوقاته هي أكبر مما يعرفه الناس.

---

(١) تم تخريجه ص (٢١).

٣٢- قال الله تعالى: {فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} (السجدة:١٧) .

٣٣- وقال تعالى: "أعددت لعابدي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر"(١).

٣٤- فبعض مخلوقاته هي أكبر في معرفة الخلق من البعض بخلاف ما إذا قيل إنه أكبر من كل شيء، فهذا لا يشركه فيه غيره.

تفسير قولة "الله أكبر" .

٣٥- وبذلك فسر النبي صلى الله عليه وسلم هذه الكلمة في مخاطبته لعدي بن حاتم حيث قال: "أيفرك أن يقال: الله أكبر، فهل من شيء أكبر من الله"(٢).

٣٦- وعلى هذا، فعلمه أكبر من كل علم، وقدرته أكبر من كل قدرة، وهكذا سائر صفاته.

٣٧- كما قال تعالى: {قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ} (الأنعام: من الآية١٩) فشهادته أكبر الشهادات.

٣٨- فهذه الكلمة تقتضي تفضيله على كل شيء مما توصف به الأشياء من أمور الكمالات التي جعلها هو سبحانه لها.

---

(١) البخاري (٣٢٤٤) ومسلم (٢٨٢٤) (٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) تقدم تخريجه ص (٢١).

التهليل يختص بالإلهية

٣٩- وأما التهليل: فيتضمن تخصيصه بالإلهية ليس هناك أحد يتصف بها حتى يقال إنه أكبر منه فيها، بل لا إله إلا الله.

٤٠- وهذه تضمنت نفي الإلهية عما سواه وإثباتها له، وتلك تضمنت أنه أكبر مطلقا، فهذه تخصيص، وهذه تفضيل لما تضمنه التسبيح والتحميد من النفي والإثبات، فإن كل ذلك إما أن يكون مختصا به أو ليس كمثله أحد فيه. .

مشروعية التكبير عند مشاهدة ما له نوع من العظمة في المخلوقات

٤١- ولهذا كان التكبير مشروعا على مشاهدة ما له نوع منم العظمة في المخلوقات كالأماكن العالية.

٤٢- والشياطين تهرب عند سماع الأذان[١].

٤٣- والحريق يطفأ بالتكبير[٢]، فإن مردة الإنس والجن يستكبرون عن عبادته ويعلون عليه ويحادونه

---

(١)ورد ذلك فيما رواه البخاري (٦٠٨) ومسلم (٣٨٩) (١٩) من حديث أب هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا نودي للصلاة أدبر الشيطان وله ضراط.."الحديث.

(٢) ورد ذلك فيما رواه ابن السني في عمل اليوم والليلة (٢٩٥، ٢٩٦) و(٢٩٧) (٢٩٨) عن عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده بلفظ :"إذا رأيتم الحريق فكبروا فإن التكبير يطفأ النار" وإسناده ضعيف جدا كما قال الألباني في "تخريج الكلم الطيب"(٢٢١)، وقد أشار المصنف لضعفه لما أورده في "الكلم الطيب" وصدره بصيغة التضعيف: "ويذكر" . وفي الباب: عن ابن عباس: عزاه في "الجامع الصغير" =

٤٤- كما قال عن موسى: { وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ وَأَنْ لا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ} (الدخان:١٧- ١٩) [١].

٤٥- فالنفوس المتكبرة تذل عند تكبيره سبحانه، والتهليل يمنع أن يعبد غيره، أو يرجى، أو يخاف، أو يدعى، وذلك يتضمن أنه أكبر من كل شيء، وأنه مستحق لصفات الكمال التي لا يستحقها غيره.

لا إله إلا الله أفضل الكلمات

٤٦- فهي أفضل الكلمات؛ كما في الصحيحين[٢] عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "الإيمان بضع وسبعون شعبة – أو وستون – أعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق".

=

لابن عدي ورمز لحسنه، وراجع "فيض القدير " للمناوي (١/٣٦٠).

وعن أبي هريرة: رواه الطبراني في "الأوسط" (٨٥٦٩) وفي "الدعاء" (١٠٠١) بلفظ: "أطفؤا الحريق بالتكبير". وقال في "المجمع" (١٠/١٣٨): "وفيه من لم أعرفهم" .

فائدة: قال العلامة ابن القيم رحمه الله: "فإن التكبير يطفأه لما كان الحريق سببه النار وهي مادة الشيطان التي خلق منها وكان فيه من الفساد العام ما يناسب الشيطان بمادته وفعله كان للشيطان إعانة عليه وتنفيذا له وكانت النار تطلب بطبعها العلو والفساد وهاذان الأمران وهما العلو في الأرض والفساد هما هدي الشيطان وإليهما يدعو وبهما يهلك بني آدم فالنار والشيطان كل منهما يريد العلو في الأرض والفساد وكبرياء الرب عز وجل تقمع الشيطان ولهذا كان تكبير الله عز وجل له أثر في إطفاء الحريق، فإن كبرياء الله عز وجل لا يقوم له شيء، فإذا كبر المسلم ربه أثر تكبيره في خمود النار وخمود الشيطان التي هي مادته فيطفئ الحريق وقد جربنا نحن وغيرنا هذا فوجدناه كذلك والله أعلم" (زاد المعاد) (٤/٢١٢، ٢١٣).

(١) سقط في الأصل الآية رقم ١٨ من السورة بين الآيتين ١٧و١٩ فأثبتها هنا.

(٢) البخاري (٩) ومسلم (٣٥) (٥٨) واللفظ له من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٤٧- وفي حديث "الموطأ"[١]: "أفضل ما قلت أنا والنبيين من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير".

٤٨- وفي "سنن ابن ماجه" و"كتاب ابن أبي الدنيا"[٢] عن النبي صلى الله عليه وسلم: "أفضل الذكر لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله".

لا إله إلا الله أساس الدين والفارق بين أهل الجنة والنار

٤٩- وهذه الكلمة هي: أساس الدين.

٥٠- وهي: الفرق بين أهل الجنة وأهل النار.

٥١- كما في "صحيح مسلم"[٣] عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "الموجبتان: من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة، ومن مات يشرك بالله شيئا دخل النار".

٥٢- وفي الصحيح[٤] عنه: "من مات وهو يعلم أنه لا إله [إلا] الله دخل الجنة".

٥٣- وفي الصحيح[٥] أيضا: "لقنوا موتاكم لا إله إلا الله".

---

(١) مالك (٥٠٠) (٩٤٥) (٤٩٨) والبيهقي (٢٨٤/٤) و(١١٧/٥) وعبد الرزاق في المصنف (٣٥٨٥) من حديث طلحة بن عبيد الله بن كريز. وفي الباب عن : عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: رواه الترمذي (٣٥٨٥) وقال: "حديث غريب".

(٢)الترمذي (٣٣٨٣) وقال: "حديث حسن غريب"، وابن ماجه (٣٨٠٠) وابن أبي الدنيا في الشكر (١٠٢) من حديث جابر. وصححه الألباني في "صحيح الترمذي" (٢٦٩٢).

(٣)مسلم (٩٣) (١٥١).

(٤)مسلم (٢٦) (٤٣) عن عثمان بن عفان رضي الله عنه. وما بين المعقوفتين زيادة منه.

(٥)مسلم (٩١٦) (١) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. وفي الباب عن أبي هريرة: رواه مسلم (٩١٧) (٢).

لا إله إلا الله الكلمة الطيبة التي بعث بها الرسل

٥٤- وهي : الكلمة الطيبة التي ضربها الله مثلا كشجرة طيبة.

٥٥- وهي: بعث بها جميع الرسل: {وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ} (الأنبياء:٧) .

٥٦- :{وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ} (الزخرف:٤٥) .

لا إله إلا الله هي الكلمة التي جعلها إبراهيم في عقبه وهي دين الإسلام

٥٧- وهي: الكلمة التي جعلها إبراهيم في عقبه: {وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} (الزخرف:٢٨) .

٥٨- وهي: دين الإسلام الذي لا يقبل الله دينا غيره، لا من الأولين ولا من الآخرين.

٥٩- {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإسلام} (آل عمران: من الآية١٩).

٦٠- {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} (آل عمران:٨٥) .

٦١- وكل خطبة لا يكون فيها شهادة فهي جذماء.

الحمد مفتاح الكلام

٦٣- والحمد مفتاح الكلام، كما في "سنن أبي داود"[١] عن النبي صلى الله عليه وسلم: "كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بالحمد فهو أجذم".

٦٤- ولهذا كانت السنة في الخطب: أن تفتتح بالحمد، ويختم ذكر الله بالتشهد، ثم يتكلم الإنسان بحاجته.

٦٥- وبها جاء التشهد في الصلاة؛ أوله: التحيات لله، وآخره: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

٦٦-وفاتحة الكتاب نصفان: نصف لله، ونصف للعبد.

ونصف الرب أوله حمد وآخره توحيد: { إِيَّاكَ نَعْبُدُ } ونصف العبد هو دعاء وأوله توحيد: { وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }.

التكبير والتهليل والتسبيح مقدمة التحميد

٦٧- والتكبير والتهليل والتسبيح مقدمة التحميد

---

(١)أبو داود (٤٨٤٠) وقال: إنه مرسل، وابن ماجه (١٨٩٤)، وقد أشار الحافظ أيضا في "الفتح" (٨/١) إلى أن في إسناده مقال؛ ففيه قرة بن عبد الرحمن ضعيف.

٦٨- فالمؤذن يقول: "الله أكبر الله أكبر". ثم يقول: "أشهد أن لا إله إلا الله".

ويختم الأذان بقوله: "الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله".

٦٩- وكذلك: تكبيرات الإشراف والأعياد تفتتح بالتكبير وتختم بالتوحيد، فالتكبير بساط.

٧٠- وكذلك: "التسبيح" مع "التحميد": "سبحان الله وبحمده"؛ {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ} (طه: من الآية١٣٠) ؛ لأن التسبيح يتضمن نفي النقائص والعيوب، والتحميد يتضمن إثبات صفات الكمال التي يحمد عليها.

التوحيد والشرك

٧١- وهو في نفس الأمر لا اله غيره، هو أكبر من كل شيء.

٧٢- وهو المستحق للتحميد والتنزيه.

٧٣- وهو متصف بذلك كله في نفس الأمر.

٧٤- فالعباد لا يثبتون له بكلامهم شيئا لم يكن ثابتا له، بل المقصود بكلامهم تحقيق ذلك في أنفسهم، فإنهم يسعدون السعادة التامة إذا صار أحدهم ليس في نفسه لا إله إلا الله خلص من المشركين.

٧٥- فإن أكثر بني آدم، كما قال تعالى:{وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ} (يوسف:١٠٦) .

٧٦- فهم يقرون أنه رب العالمين لا رب غيره، ومع هذا يشركون به في الحب أو التوكل أو

الخوف أو غير ذلك من أنواع الشرك.

٧٧- وأما **التوحيد**: أن يكون الله أحب إليه من كل ما سواه. فلا يحب شيئا مثل ما يحب الله.

ولا يخافه كما يخاف الله.

ولا يرجوه كما يرجوه.

ولا يجله ويكرمه مثل ما يجل الله ويكرمه.

٧٨- ومن سوى بينه وبين غيره في أمر من الأمور فهو مشرك، إذ كان المشركون لا يسوون بينه وبين غيره في كل[أمر] [1]فإن هذا لم يقله أحد من بني آدم، وهو ممتنع لذاته امتناعا معلوما لبني آدم، لكن منهم من جحده وفضل عليه غيره في العبادة والطاعة، لكن مع هذا لم يثبت ويسوي بينه وبين غيره في كل الأشياء.

فمن سوى بينه وبين غيره في أمر من الأمور فهو مشرك.

٧٩- قال الله تعالى:**{الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ}** (الأنعام:١) .

أي: يعدلون به غيره.

يقال: عدل به أي جعله عديلا لكذا ومثلا له.

---

(١) زيادة يستقيم بها السياق.

٨٠- وقال تعالى:{وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ} إلى قوله: {إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ} (الشعراء:٩١-٩٨) .

٨١- وقال تعالى:{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ} (البقرة: من الآية١٦٥).

٨٢- فلا إله إلا هو سبحانه، وما سواه ليس بإله، لكن المشركون عبدوا معه آلهة، وهي أسماء سموها هم وآبائهم ما أنزل الله بها من سلطان، كما يسمى الإنسان- للجاهل عالما وللكاذب صادقا- ويكون ذلك عنده لا في نفس الأمر، وهؤلاء آلهة في نفوس المشركين بهم ليسوا آلهة في نفس الأمر، ولهذا كان ما في نفوسهم من الشرك هو إفكا.

٨٣- قال الله تعالى عن إبراهيم:{ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ أَإِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ} (الصافات:٨٦،٨٥) .

٨٤- وقال أيضا:{إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً} (العنكبوت: من الآية١٧) .

٨٥- وقال:{هَؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً} (الكهف:١٥) .

٨٦- وقال هود لقومه:{اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ} (هود: من الآية٥٠) .

٨٧- والموحد صادق في قوله لا إله إلا الله، وكلما كرر ذلك تحقق قلبه بالتوحيد والإخلاص.

كل ما يخطر بنفس العباد من التعظيم فالله أكبر منه

٨٨- وكذلك قوله:"الله أكبر"، فإنه تعالى كل ما يخطر بنفس العباد من التعظيم فهو أكبر منه، الملائكة والجن والإنس، فإنه أي شيء قدر في الأنفس من التعظيم كان دون الذي هو متصف به.

٨٩- كما أنه سبحانه فوق ما يثني عليه العباد، كما قال أعلم الناس به:"لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك"(١).

٩٠- فكلما قال العبد "الله أكبر" تحقق قلبه بأن يكون الله في قلبه أكبر من كل شيء، فلا يبقى لمخلوق على القلب ربانية تساوي ربانية الرب فضلا عن أن تكون مثلها.

المحبة المأمور بها والمنهي عنها.

٩١- وهذا داخل في التوحيد لا إله إلا الله،فلا يكون في قلبه لمخلوق شيء من التأله، لا قليل ولا كثير، بل التأله كله لله ولكن للمخلوق عنده نوع من القدر والمنزلة والمحبة، وليست كقدر الخالق، والمحبة المأمور بها هي الحب لله كحب الأنبياء والصالحين، فهو يحبهم، لأن الله أمر بحبهم، فهذا هو الحب لله، فأما من أحبهم مع الله فهذا مشرك.

٩٢- كما قال تعالى:{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ} (البقرة: من الآية١٦٥).

---

(١) جزء من حديث رواه مسلم (٣٨٦)(٢٢)من حديث عائشة رضي الله عنها.

الحب في الله من إيمان والحب مع الله شرك.

٩٣- فالحب في الله إيمان، والحب مع الله شرك.

٩٤- وكذلك إذا قال:"سبحان الله والحمد لله" فقد نزه الرب فنزه قلبه أن يصف الرب بما لا ينبغي له، فكلما سبح الرب تنزهت نفسه عن أن يصف الرب بشيء من السوء.

٩٥- كما قال سبحانه:{سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ} (الصافات:١٨٠) .

٩٦- وقال:{سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً} (الإسراء:٤٣) .

تسبيح الرب فيه تزكية للنفس.

٩٧-فهو سبحانه سبح نفسه عما يصفه المفترون والمشركون.

٩٨- فإذا سبح الرب كان قد زكى نفسه، وقد سمى الله الأعمال الصالحة زكاة وتزكية في مثل قوله:{ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ }(فصلت: ٦، ٧).

٩٩- قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس: { وَيُزَكِّيكُمْ} (البقرة: من الآية١٥١) . قال: يعني بالزكاة طاعة الله والإخلاص(١).

فجمع بين التزكية من الكفر والذنوب.

---

(١)"تفسير الطبري" (٥٥٨/١)،و"تفسير القرطبي"(١٧/٢)،و"فتح القدير"(٣٥/٤). وطريق علي عن ابن عباس مرسلة لأنه لم يلق ابن عباس بل أرسل عنه التفسير، فقيل سمعه من مجاهد، وقيل من غيره، فلى أ، علي بن طلحة قال فيه أحمد: له أشياء منكرات، قاله العلائي في" جزء الباقيات الصالحات" ص (٤٢،٤٢).

١٠٠- وقال مقاتل بن حيان: { وَيُزَكِّيكُمْ} (البقرة: من الآية١٥١):."يطهركم من الذنوب"[١]، هكذا قال في آيتي البقرة.

١٠١- وقال في آية الصف:"يطهركم من الذنوب والكفر"[٢].

١٠٢- وقال ابن جريج:" يطهرهم من الشرك ويخلصهم منه"[٣]

١٠٣- وقال السدي:" يأخذ زكاة أموالهم"[٤].

تفسير قوله:{ الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ }.

١٠٤- ففسروا الآية بما يعم زكاة الأعمال وغيرها من الأعمال، فقال: بالإخلاص والطاعة، وتزكيتهم من الذنوب والكفر أعظم مقصود الآية والمشركون نجس، والصدقة من تمام التطهر والزكاة، كما قال تعالى:{خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا} (التوبة: من الآية١٠٣)}.

١٠٥- وكذلك قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله:{ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ } (فصلت: ٦، ٧).

قال:"هم الذين لا يشهدون أن لا إله إلا الله" [٥].

---

(١) "تفسير الطبري" (١/٥٥٨)و"تفسير القرطبي" (٢/١٣١).

(٢) "تفسير القرطبي"(١٨/٩٢).

(٣) "تفسير القرطبي"(١٨/٩٢).

(٤) "تفسير القرطبي"(١٨/٩٢). و"فتح القدير" (٥/٢٢٥).

(٥) فسير الطبري"(٢٤/٩٢)، و"تفسير ابن كثير"(٤/٩٣).

١٠٦- وروي عن عكرمة نحو ذلك[١].

١٠٧- وقال قتادة:"لا يقرون بها ولا يؤمنون بها"[٢].

١٠٨- وكذلك قال السدي:"لا يهتدون بها، ولو زكوا وهم مشركون لم ينفعهم"[٣].

١٠٩- وقال معاوية بن قرة:"ليسوا من أهلها"[٤].

١١٠- وقد قال موسى لفرعون:{ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى} (النازعات:١٨، ١٩) .

١١١- وقال عن الأعمى:{وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى} (عبس:٣) .

١١٢- وقال:{ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا} (الشمس:٩، ١٠) .

١١٣- وقال:{ إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَى } إلى قوله:{ وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تزَكَّى} (طه: ٧٤-٧٦) .

معنى الحمد.

١١٤- وكذلك الحمد، كلما حمد العبد ربه تحقق حمده في قلبه ومعرفة بمحامده، ومحبة له، وشكرا له.

---

(١) فسير الطبري"(٢٤/٩٢)،وعزاه في "الدر المنثور"(٧/٣١٣)لعبد بن حميد والحكيم الترمذي.

(٢) فسير الطبري"(٢٤/٩٢).

(٣) فسير الطبري"(٢٤/٩٢)

(٤) "تفسير ابن كثير"(٤/٩٢).

١١٥- والألف واللام في قوله"الحمد لله" فيها قولان

الأول: هي للجنس كما ذكره بعض المفسرين من المعتزلة وتبعه عليه بعض المنتسبين إلى السنة.

والثاني: وهو الصحيح- أنها للاستغراق، فالحمد كله لله.

الحمد المستقل والملك المستقل.

١١٦- كما جاء في الأثر:"لك الحمد كله، ولك الملك كله"[1].

١١٧- فله الحمد حمد مستقل، وله الملك ملك مستقل، ولكن هو سبحانه يؤتي الملك من يشاء، والذي يؤتيه هو من ملكه، وكل ما تصرف فيه العبد فهو من ملك الرب، وهو مستقل بالملك، ليس هذا لغيره.

١١٨- كذلك الحمد هو مستقل بالحمد كله، فله الحمد كله وله الملك كله، وكل ما جاء به الإذن من موجود، فله الحمد عليه وكل من جعله للعباد مما يحمدون عليه، فله الحمد عليه وإذا ألهمهم الحمد فهو الذي جعلهم حامدين.

---

(١) أخرجه أحمد(٥/٣٩٥، ٣٩٦)بإسناد منقطع من حديث حذيفة أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: بينما أنا أصلي إذ سمعت متكلما يقول: اللهم لك الحمد كله ولك الملك كله بيدك الخير كله إليك يرجع الأمر كله علانيته وسره فأهل أن تحمد، إنك على كل شيء قدير، اللهم اغفر لي جميع ما مضى من ذنبي، واعصمني فيما بقي من عمري، وارزقني عملا زاكيا ترضى به عني فقال النبي صلى الله عليه وسلم :"ذاك ملك أتاك يعلمك تحميد ربك".

وقال الهيثميفي "المجمع" (١٠/٩٦):"رواه أحمد وفيه راو لم يسم، وبقية رجاله ثقات".

وأورده المنذري في"الترغيب والترهيب"(٢/٤٢٩،٤٢٨)من حديث أنس بنحو القصة وقال:"رواه ابن أبي الدنيا في"كتاب الذكر"ولم يسم تابعيه".

الحمد عند أهل السنة والمعتزله

١١٩- و"**المعتزلة**" لا يقرون بأنه جعل الحامد حامدا، والمصلي مصليا والمسلم مسلما، بل يثبتون وجود الأعمال الصالحة من العبد لا من الله فلا يستحق الحمد على تلك الأعمال على أصلهم، إذ كان ما أعطاهم من القدرة والتمكين وإزاحة العلل قد أعطى الكفار مثله، لكن المؤمنون استقلوا بفعل الحسنات كالأب الذي يعطي ابنه مالا، فهذا ينفقه فيس الطاعة وهذا ينفقه في المعصية.

١٢٠- فهو عندهم لا يمدح على إنفاق على هذا الابن كما لا يذم على إنفاق الآخر.

١٢١- وأما "أهل السنة" فيقولون كما أخبر الله تعالى: **{وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ}** (الحجرات: ٧) .

١٢٢- وقال أهل الجنة: **{الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ}** (لأعراف: من الآية٤٣).

١٢٣- وقال الخليل: **{رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ}** (ابراهيم: من الآية٤٠) .

١٢٤- وقال هو وابنه إسماعيل: **{ وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ}** (البقرة: من الآية١٢٨).

١٢٥- ويحمدون الله – حمد النعمة وحمد العبادة –كما قد بسط هذا في الكلام في الشكر.

١٢٦- وهو سبحانه جعل من شاء من عباده محمودا، ومحمدا سيد المحمودين، ومحمد تكون

صفته المحمودة أكثر وأحمد يكون أحمد من غيره. فهذا أفضل وذاك أكثر، وهو سبحانه جعل محمدا وأحمد، فهو المحمود على ذلك.

١٢٧- وحمد أهل السماوات والأرض جزء من حمده، فإن حمد المصنوع حمد صانعه، كما أن كل ملك هو جزء من ملكه فله الملك وله الحمد.

تمام الحمد بالتوحيد

١٢٨- والحمد إنما يتم بالتوحيد، وهو مناط للتوحيد ومقدمة له ولهذا يفتتح به الكلام، ويثنى بالتشهد، وكل كلام لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو أجذم، وكل خطبة ليس فيها تشهد فهي كاليد الجذماء.

١٢٩- وإذا كان الحمد كله له ...[١] بخلاف ما إذا أثبت جنس الحمد من غير استغراق، فإن هذا لا يثبت خصائص الرب التي بها يمتاز عن غيره، فإن الحمد إذا كان للجنس أوجب أن يكون لغيره أفراد من أفراد هذا الجنس كما تقوله القدرية.

١٣٠- وأما أهل السنة فيقولون: الحمد لله كله...[٢] وإنما للعبد حمد مقيد لكون الله تعالى أنعم به عليه، كما للعبد ملك مقيد، وأما الملك المستقل، والحمد المستقل، والملك العام، والحمد العام، فهو لله رب العالمين لا إله إلا هو له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير.

---

(١) كذا بالأصل.

(٢) بياض بالأصل.

١٣١- وفي "السنن"[١] عن النبي صلى الله عليه وسلم: "من قال حين يصبح: اللهم ما أصبح بي من نعمة فمنك وحدك لا شريك لك فلك الحمد فقد أدى شكر ذلك اليوم فمن قال مثل ذلك إذا أمسى فقد أدى شكر تلك الليلة".

١٣٢- وقال تعالى: { وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ} (النحل:٥٣، ٥٤) .

١٣٣- وقال تعالى: {وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ} (الواقعة:٨٢) .

أي: تجعلون شكركم على نعمة الله أنكم تضيفونها إلى غيره بقولكم "مطرنا بنوء كذا وكذا".

١٣٤- وقال تعالى: {وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ} (الروم: من الآية٣٣).

١٣٥- وقال : {هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} (غافر:٦٥) .

١٣٦- وفي حديث آخر: "من قال إذا أصبح: الحمد لله رب لا أشرك به شيئا، أشهد أن لا إله إلا الله، ظل تغفر له ذنوبه حتى يمسي، وإن قالها حين يمسي ظل تغفر له ذنوبه حتى يصبح" رواه أبان المحاربي عن النبي صلى الله عليه وسلم[٢].

---

(١) أبو داود (٥٠٧٣) والنسائي في الكبرى (٩٨٣٥) من حديث عبد الله بن غنام البياضي وضعفه الألباني في "تخريج الكلم الطيب" (٢٦)

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٢٣١/١) برقم (٦٣٥).

وقال الهيثمي في "المجمع" (١١٧/١٠): "رواه الطبراني وفيه أبان ابن أبي عياش وهو متروك".وضعفه أيضا: الحافظ في "الإصابة" (١٨/١).

١٣٧- وقال سعيد ابن جبير: إذا قرأت {فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} (غافر:١٤) فقل: "لا إله إلا الله، وقل على أثرها: "الحمد لله رب العالمين"" ثم قرأ هذه الآية : {فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} (غافر:٦٥) [١].

١٣٨- وقد روي نحو ذلك عن ابن عباس[٢].

١٣٩- وقد ثبت في "الصحيحين"[٣] أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول في دبر الصلاة: "لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون".

١٤٠- وهذا قد ذكره في أوائل هذه السورة فقال تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ } إلى قوله : {فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} (غافر:١٠-١٤) .

نوعان من الدعاء من دعا بهما فقد دعا الله باسمه الأعظم.

١٤١- وفي "السنن" نوعان من الدعاء، يقال في كل منهما لمن دعا به الله بسمه الأعظم:

---

(١) "تفسير الطبري" (٨١/٢٤).

(٢) الحاكم (٤٧٦/٢) وقال: "صحيح على شرط الشيخين" والطبري (٨١/٢٤).

(٣) الحديث في مسلم (٥٩٤) (١٣٩) ولم يروه البخاري.

أحدهما: "اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، أنت الله المنان بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام"[1].

والآخر: "اللهم إني أسألك بأنك أنت الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد"[2].

١٤٢- والأول: سؤال بأنه المحمود والثاني: سؤال بأنه الأحد بذاك سؤالا بكونه محمودا وهذا سؤالا بوحدانيته المقتضية توحدا، وهو في نفسه معود يستحق الحمد معبود يستحق العبادة.

١٤٣- والنصف الأول من الفاتحة – الذي هو نصف الرب – أوله تحميد وآخره تعبيد.-

١٤٤- وقد بسط مثل هذا في مواضع [3] وبين أن التحميد والتوحيد مقرونان لا بد منهما في كل خطبة.

---

(١) أبو داود (١٤٩٥) والنسائي (٥٢/٣) وفي الكبرى (١١٣٢) والترمذي (٣٥٤٤) وأحمد (١٢٠/٣) وابن ماجه (٣٨٥٨) وصححه ابن حبان (٨٩٣) والحاكم (٥٠٣/١، ٥٠٤) ووافقه الذهبي من حديث أنس رضي الله عنه.
وصححه الألباني في "صحيح ابن ماجه" (٣٨٥٨)

(٢) أبو داود (١٤٩٣، ١٤٩٤) والنسائي (٥٢/٣) والترمذي (٣٤٧٥) وأحمد (٣٤٩/٥، ٣٥٠، ٣٦٠) وابن ماجه (٣٨٥٧) والبغوي (١٢٩٥، ١٢٦٠) وصححه ابن حبان (٨٩١، ٨٩٢) والحاكم (٥٠٤/١) ووافقه الذهبي وصححه الألباني "صحيح الترمذي" (٣٤٧٥)من حديث بريدة رضي الله عنه.

(٣) راجع: "مجموع الفتاوى" (٣٤/٧) (١١٨/١٦) (٢٣٥/٢٤).

١٤٥- فـ"كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو أجذم" و"كل خطبة ليس فيها تشهد فهي كاليد الجذماء" [1].

١٤٦- و"الحمد" مقرون بـ"التسبيح"، و"لا إله إلا الله" مقرون بـ"التكبير"، فذاك تحميده، وهذا توحيده.

١٤٧- قال تعالى: {فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} (غافر: من الآية٦٥) .

١٤٨- ففي أحدهما: إثبات المحامد له، وذلك يتضمن جميع صفات الكمال ومنع النقائص.

وفي الآخر: إثبات وحدانيته في ذلك وأنه ليس له كفؤ في ذلك.

١٤٩- وقد بينا في غير هذا الموضع أن هذين الأصلين يجمعان جميع أنواع التنزيه.

إثبات المحامد يستلزم نفي النقائص

١٥٠- فإثبات المحامد المتضمنة لصفات الكمال تستلزم نفي النقص وإثبات وحدانيته، وأنه ليس له كفؤ في ذلك يقتضي أنه لا مثل له في شيء من صفات الكمال.

١٥١- كما دل على هذين الأصلين قوله تعالى: { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ} (الاخلاص:١-٤) .

---

(١) راجع تخريج ذلك فيما تقدم ص (٣٠).

١٥٢- واسمه "الله" تضمن جميع المحامد.

فإنه يتضمن الهية المستلزمة لذلك.

١٥٣- فإذا قيل: "لا إله إلا الله"؛ تضمنت هذه الكلمة إثبات جميع المحامد، وأنه ليس له فيها نظير؛ إذ هو إله، لا إله إلا هو، والشرك كله: إثبات نظير لله عز وجل.

١٥٤- ولهذا يسبح نفسه ويعاليها عن الشرك في مثل قوله: **{ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}** (المؤمنون:٩١،٩٢).

١٥٥- وقال تعالى: **{ أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ}** (الانبياء:٢١، ٢٢) .

١٥٦- فإن الشرك قول هو وصف، وعمل هو قصد، فنزه نفسه عما يصفوت بالقول والاعتقاد، وعن أن يعبد معه غيره.

١٥٧- وأعظم آية في القرآن: آية الكرسي.

أولها: **{اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ}** (البقرة: من الآية٢٥٥) .

فقوله: **{ اللَّهُ }** هو اسمه المتضمن لجميع المحامد وصفات الكمال.

وقوله **{ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ }** نفي للنظراء والأمثال.

١٥٨- وكذلك أول الكلمات العشر التي في التوراة: **"يا اسرائيل أنا الله لا إله إلا أنا"** جمع بين

الإثبات ونفي الشريك.

١٥٩- فالإثبات لرد التعطيل، والتوحيد لنفي الشرك.

التحميد والتوحيد وما يتضمنه كلا منهما

١٦٠- وهكذا "التحميد" و"التوحيد":

ف"التحميد" يتضمن: إثبات ما يستحقه من المحامد المتضمنة لصفات الكمال، وهو رد التعطيل.

و"التوحيد": رد الشرك.

١٦١- و"التحميد" يتضمن: إثبات أسمائه الحسنى، وكلها محامد له، وهو يتضمن ذكر آياته وآلئه، فإنه محمود على آلائه كلها، وآياته كلها من آلائه كما قد بسط في مواضع[1].

١٦٢- فهو محمود على كل ما خلق، له الحمد ملئ السموات وملئ الأرض وملئ ما بينهما وملئ ما شاء من شيئ بعد ذلك، فله الحمد حمدا يملأ جميع ما خلقه ويملأ ما شاء خلقه بعد ذلك، إذا كان كل مخلوق هو محمود عليه، بل هو مسبح بحمده.

١٦٣- كم قال تعالى: { وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً} (الاسراء: من الآية٤٤) .

---

(١) "مجموع الفتاوى" (١٧/٤٥٢، ٢٤/٢٢٩، ٢٣٠).

١٦٤- والتوحيد يقتضي نفي كل ند ومثيل ونظير، وهو كمال التحميد وتحقيقه، ذاك إثباته بغاية الكمال ونفي النقص، وهذا نفي أن يكون له مثل أو ند.

تفسير قوله: { وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ}

١٦٥- وقوله: { وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ} (طه: من الآية١٣٠).

قد فسرها كثير من المفسرين: أي فصل بحمد ربك والثناء عليه لم يذكر ابن الجوزي غير هذا القول، قال: { وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ} (طه: من الآية١٣٠): أي صل له بالحمد له والثناء عليه[١].

تفسير التسبح بالصلاة

١٦٦- وتفسير "التسبيح" بالصلاة فيها أحاديث صحيحة وآثار كثيرة، مثل حديث جرير المتقدم[٢].

١٦٧- وأما قوله: { بِحَمْدِ رَبِّكَ } فقد فسروه –كما تقدم – أي: بحمد ربك، وشكر ربك، وطاعة ربك، وعبادة ربك.

أي: بذكرك ربك وشكرك ربك وطاعتك ربك وعبادة ربك.

١٦٨- ولا ريب أن حمد الرب والثناء عليه ركن في الصلاة، فإنها لا تتم إلا بالفاتحة التي نصفها الأول حمد لله وثناء عليه وتحميد له، وقد شرع قبل ذلك الاستفتاح، وشرع الحمد عند الرفع من الركوع، وهو متضمن لحمد لله تعالى.

١٦٩- وذكر طائفة من المفسرين كالثعلبي وغيره قولين:

---

(١) "زاد المسير" (٣٣٣/٥).

(٢) تقدم تخريجه ص(١٨).

- قالوا: واللفظ للبغوي: { وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ } أي: صل بأمر ربك [1].

- وقيل: صل له بالحمد له والثناء عليه.

فهذا القول الأول الذي ذكره البغوي هو مأثور عن أبي مالك أحد التابعين الذين أخذ عنهم السدي التفسير من أصحاب ابن عباس.

١٧٠- وروى ابن أبي حاتم عن أسباط عن السدي عن أبي مالك: قوله: { بِحَمْدِ } يعني: بأمر [2].

وتوجيه هذا: أن قوله { بِحَمْدِ } أي بكونه محمودا، كما قد قيل في قول القائل: "سبحان الله وبحمده" قيل: سبحان الله ومع حمده أسبحه، أو أسبحه بحمدي له.

١٧١- وقيل: "سبحان الله وبحمده" سبحناه، أي: هو المحمود على ذلك، كما تقول: فعلت هذا بحمد الله وصلينا بحمد الله، أي: بفضله وإحسانه الذي يستحق الحمد عليه، وهو يرجع إلى الأول، كنه قال: تحمدنا لله، فإنه المستحق لأن نحمده على ذلك، وإذا كان ذلك بكونه المحمود على ذلك، فهو المحمود على ذلك؛ حيث كان هو الذي أمر بذلك وشرعه، فإذا سبحنا سبحنا بحمده.

١٧٢- كما قال تعالى: {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ } (آل

---

(١) "تفسير البغوي" (٣/٢٣٦، ٤/٤٧٥).

(٢) "تفسير البغوي" (٣/٦٠).

عمران: من الآية١٦٤) .

١٧٣- وقد يكون القائل الذي قال: { وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ } أي: بأمره، أراد المأمور به، أي: سبحه بما أمرك أن تسبحه به.

١٧٤- فيكون المعنى: سبح التسبيح الذي أمرك به، كالصلاة التي أمرك بها.

١٧٥- وقولنا "صليت بأمر الله" و"سبحت بأمر الله" يتناول هذا وهذا، يتناول أنه أمر بذلك ففعلته بأمره لم أبتدعه، وإني فعلت بما أمرني به لم أبتدع.

١٧٦- فأما هذه الآية: { وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا}(طه: من الآية١٣٠). فلم يذكر البغوي وابن الجوزي إلا أنه الصلاة كما ذكرنا.

١٧٧- وكذلك آية "ق

قال ابن الجوزي: {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ} أي: صل بالثناء على ربك والتنزيه عما يقول المبطلون، فذكر الثناء والتنزيه عما يقول المبطلون تفسيرا للحمد[1] .

١٧٨- فأما البغوي فإنه قال: "فصل حمدا لله" [2]، وهو ينقل ما ذكره الثعلبي في "تفسيره" في مثل هذه المواضع، والثعلبي يذكر ما قاله غيره، سواء قاله ذاكرا أو آثرا، ما يكاد هو ينشئ من عنده عبارة.

---

(١)"زاد المسير (٥/٣٣٣).

(٢) "تفسير البغوي" (٧/٣٦٤).

١٧٩- وهذه عبارة طائفة، قالوا: {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ} : صل حمدا لله، جعل نفس الصلاة حمدا، كما يقال: أفعل هذا حمدا لله، أي: شكرا.

١٨٠- وهذا بني على قول من قال: {بِحَمْدِ رَبِّكَ} أي بكونه محمودا، ثم جعل المصدر يضاف إلى المفعول، وليس المراد أن الحمد غير التسبيح، نفس تسبيح الله هو حمد الله.

التسبيح يراد به جنس الصلاة وصلاة النافلة خصوصا.

١٨١- ولفظ "التسبيح" يرادبه: جنس الصلاة[١].

وقد يراد هـ: النافلة خصوصا، فإن الفرض لما كان له اسم يخصه جعل هذا اللفظ للنافلة.

١٨٢- كما في حديث: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسبح على راحلته حيث توجهت به"[٢].

١٨٣- و"كان يصلي سبحة الضحى"[٣].

---

(١) تكرار بالأصل هذه الجملة.

(٢) البخاري (١٠٩٨) ومسلم (٧٠٠) (٣٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) رواه أحمد (١٤٦/٣) والحاكم (٣١٤/١) من حديث أنس بن مالك قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر صلى سبحة الضحى ثمان ركعات..الحديث. وصححه الأرناؤوط في تخريج "المسند" (٤٦٩/١٩).

١٨٤- ومنه ما رواه مسلم في "صحيحه"[١] عن حفصة قالت: ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى سبحة قاعدا حتى كان قبل وفاته بعام. وفي رواية: "أو اثنتين"[٢].

فكان يصلي في سبحته قاعدا، وكان يقرأ بالسورة فيرتلها حتى تكون أطول من أطول منها.

١٨٥- ومنه أيضا: ما أخرجاه في "الصحيحين"[٣] عن عائشة قالت: "ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي سبحة الضحى قط وإني لأسبحها، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليدع العمل وهو يحب أن يعمل به خشية أن يعمل به الناس فيفرض عليهم".

١٨٦- لكن هذا يوجد في كلام الصحابة تسمية التطوع سبحة خصوه بذلك، وأما في كلام النبي صلى الله عليه وسلم فيحتاج إلى نقل عنه .

التسبيح يراد به جنس ذكر الله

١٨٧- ويراد بـ"التسبيح": جنس ذكر الله.

يقال: "فلان يسبح" إذا كان يذكر الله، ويدخل في ذلك التهليل والتحميد، ومنه سميت السباحة للأصبع التي يشير بها وإن كان يشير بها في التوحيد.

التسبيح يراد به قول العبد سبحان الله

١٨٨- ويراد بـ "التسبيح": قول العبد "سبحان الله" وهذا أخص به.

---

(١) مسلم (٧٣٣) (١١٨).

(٢) مسلم (٧٣٣) (١١٨مكرر).

(٣) البخاري (١١٢٨) ومسلم (٧١٨) (٧٧).

١٨٩- وفي "السنن"[١]: لما أنزل الله تعالى: {فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ} (الواقعة:٧٤) قال: "اجعلوها في ركوعكم" ولما نزل: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى} (الأعلى:١) قال: "اجعلوها في سجودكم".

١٩٠- وفي "الصحيحين"[٢] عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "كلمتان حبيبتان إلى الرحمن، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان؛ سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم".

١٩١- وفي "الصحيحين"[٣] عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من قال [في][٤] يوم مائة مرة سبحان الله وبحمده؛ حطت عنه خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر".

لماذا سميت الصلاة تسبيحا

١٩٢- وقد قيل:إن الصلاة إنما سميت تسبيحا لاشتمالها على التسبيح، كما سميت قياما وقرآنا لاشتمالها على القيام والقراءة.

وتسمى ركعة وسجدة لاشتمالها على الركعة والسجدة، لكن فرق بين قوله {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى} و{ الْعَظِيمِ }.

فهذه قد فسرت بالتسبيح المجرد: قول العبد في ركوعه وسجوده: سبحان رب العظيم، سبحان

---

(١) تقدم تخريجه ص (٢٢).

(٢) تقدم تخريجه ص (١٩).

(٣) البخاري (٦٤٠٥) ومسلم (٢٦٩١) (٢٨).

(٤) ما بين المعقوفتين زيادة يستقيم بها السياق.

رب الأعلى، وبين قوله {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ}.

١٩٣- فإن هذا إذا قيل إن المراد: بحمدك ربك أمر التسبيح وبالحمد كقوله: سبحان الله وبحمده.

١٩٤- والمصلي إذا حمد ربه في القيام أو في القيام والقعود وسبح في الركوع والسجود؛ فقد جمع التسبيح والحمد فسبح بحمد ربه فالصلاة تسبيح بحمد ربه، كما بين النبي صلى الله عليه وسلم ذلك.

تفسير التسبيح بالكلام عند افتتاح الصلاة وعند القيام من المجلس

١٩٥- وقد فسر طائفة من السلف قوله: {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ} (الطور: من الآية٤٨) بالتسبيح بالكلام.

وذكروا أنواعا: **التسبيح عند افتتاح الصلاة، والتسبيح عند القيام من المجلس.**

١٩٦- فروى ابن أبي حاتم عن سفيان عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص: {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ} قال: "إذا أراد أن يقوم الرجل من مجلسه قال: سبحانك اللهم وبحمدك".

هكذا رواه وكيع [1].

١٩٧- ورواه أبو نعيم وقبيصة فقالا يقول: "سبحان الله وبحمده".

---

(١) الطبري (٣٨/٢٧) وعزاه في "الدر المنثور" (٦٣٧/٧) لابن أبي شيبة.

١٩٨- وعن ابن أبي نجيح عن مجاهد: { حِينَ تَقُومُ } قال: "من كل مجلس"[١].

١٩٩- وعن طلحة عن عطاء : {حِينَ تَقُومُ}: "من كل مجلس إن كنت أحسنت ازددت خيرا، وإن كان غير ذلك كان هذا كفارة له"[٢].

٢٠٠- وقال طائفة: {حِينَ تَقُومُ} إلى الصلاة.

٢٠١- وكذلك: قال الضحاك: {حِينَ تَقُومُ}: "إلى الصلاة المفروضة"[٣].

٢٠٢- وكذلك: قال ابن زيد: "إذا قام إلى الصلاة من ليل أو نهار"[٤].

٢٠٣- وفي رواية جويبر عن الضحاك قال: هو قول الرجل إذااستفتح الصلاة: "سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك وتعالى جدك، ولا إله غيرك"[٥].

٢٠٤- وقال أبو الجوزاء: {حِينَ تَقُومُ} من منامك من فراشك[٦].

٢٠٥- وعلى هذا فهو أمر بالصلاة إذا قام من فراشه من قائلة النهار فهو أمر بصلاة الظهر والعصر.

تفسير قوله: {وَإِدْبَارَ النُّجُومِ} وقوله: {وَأَدْبَارَ السُّجُودِ}.

---

(١) عزاه في "الدر المنثور" (٦٣٧/٧) للفريابي وابن النذر.

(٢) "تفسير ابن أبي حاتم" (٣٣١٧/١٠) ونقله عنه ابن كثير في التفسير (٢٤٥/٤).

(٣) "الطبري" (٣٨/٢٧) وعزاه أيضا في "الدر المنثور" (٦٣٧/٧) لسعيد ابن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر.

(٤) "الطبري" (٣٧/٢٧).

(٥) "تفسير الطبري" (٣٨/٢٧) وجويبر ضعيف.

(٦) ""تفسير ابن كثير " (٢٤٥/٤) وقال: "واختاره ابن جرير".

٢٠٦- {وَإِدْبَارَ النُّجُومِ}؛ فسرها طائفة بركعتي الفجر[١].

٢٠٧- وروى ابن عيينة عن ابن أبي نجيح عن مجاهد: {وَإِدْبَارَ النُّجُومِ} قال ابن عباس: "هو التسبيح أدبار الصلاة"[٢].

٢٠٨- قلت: لعل هذا تفسير لقوله: {وَأَدْبَارَ السُّجُودِ} فإنه أنسب.

٢٠٩- وقد روي عن طائفة من السلف: أن أدبار السجود: الركعتان بعد المغرب[٣]، وإدبار النجوم: ركعتا الفجر فإحداهما تشتيه بالأخرى.

٢١٠- فقوله: {وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ} (قّ:٤٠) إذا فسر هذا التسبيح دبر الصلاة كان اللفظ دالا على هذا.

٢١١- والسلف الذين فسروها بهذا كأنهم والله أعلم أرادوا أن أول ما يكتب في صحيفة النهار: ركعتا الفجر، وآخر ما يرفع: ركعتا المغرب، فقد روي: أنهما ترفعان مع عمل النهار.

٢١٢- قلت: ولفظ التسبيح يتناول هذا كله؛ منه واجب، ومنه مستحب.

آخره والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

---

(١)منهم ابن عباس وعلي وحسن وقتادة، وراجع: "تفسير الطبري" (٣٩/٢٧).

(٢) "تفسير الطبري" (٣٩/٢٧).

(٣) قال ابن كثير (٢٣٠/٤): "وروي عن عمر وعلي وابنه الحسن وابن عباس وأبي هريرة وأبي أمامة رضي الله عنهم وبه يقول مجاهد وعكرمة والشعبي والنخعي والحسن وقتادة وغيرهم".

ترجمة شيخ الإسلام من ذيل تاريخ الإسلام للذهبي[1]

إعداد

علي بن عبدالعزيز بن علي الشبل

اسمه ونسبه :

قال رحمه الله تعالى :

ابن تيمية ، الشيخ ، الإمام ، العالم ، المفسر ، المجتهد ، الحافظ ، المحدث ، شيخ الإسلام ، نادرة العصر ، ذو التصانيف الباهرة والذكاء المفرط ، تقي الدين ، أبو العباس ، أحمد ، ابن العالم المفتي شهاب الدين عبدالحليم ، ابن الإمام شيخ الإسلام مجد الدين أبي البركات عبدالسلام مؤلف " الأحكام " ، ابن عبدالله بن أبي القاسم الحراني ، ابن تيمية ، وهو لقب جده الأعلى .

---

(١) الإمام الذهبي : هو الإمام العلامة مؤرخ الإسلام شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد ابن عثمان بن قايماز بن عبدالله التركماني الفارقي الدمشقي الشهير بالذهبي ، المولود سنة ٦٧٣هـ ، والمتوفى سنة ٧٤٨هـ .
صاحب التصانيف الذائعة الصيت ، ومن أكبرها : "تاريخ الإسلام الكبير" ، و "سير أعلام النبلاء" ، و "ميزان الاعتدال" وغيرها من المعاجم والدواوين والتصانيف التي تبين عن علمه وحفظه وإمامته وعلو شأنه .
تتلمذ على : الحافظ أبي الحجاج المزي (٦٥٤-٧٤٢هـ) وعلى أبي محمد القاسم البرزالي (٦٦٥-٧٣٩هـ) ، وعلى الشيخ تقي الدين أحمد بن تيمية الحراني (٦٦١-٧٢٨هـ) .
وكتاب الذيل هذا وصلنا مخطوطاً مضمناً تراجم جماعة م ن العلماء والفضلاء وغيرهم ، من بداية القرن الثامن الهجري إلى قرب منتصفه تقريباً .
فجاء في أوله : " بسم الله الرحمن الرحيم ، اللهم صل على أشرف خلقك سيدنا محمد وآله وسلم ، أخبرني غير واحد مشافهة وكتابة ، عن الإمام الحافظ الكبير شمس الدين أبي عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز رحمة الله تعالى عليه ؛ قال : هذا مجلد ملحق " تاريخ الإسلام " شبه الذيل عليه ، فيه نحو من أربعين سنة ، أولها سنة إحدى وسبع مائة ... " . وفي آخره : " ... تم ذيل كتاب " تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام " ... " .
وكاتبه كما في آخره هو عبدالقادر بن عبدالوهاب بن عبدالمؤمن القرشي.
وذكر أنه فرغ من نسخها تجاه الكعبة المشرفة في ٢٥ صفر سنة ٨٧٤هـ . وهي محفوظة بجامعة ليدن بهولندا تحت رقم ٣٢٠ . والنسخة خطها حسن منقوط غالباً في ١١٦ ورقة ، في كل ورقة صفحتان ، وفي كل صفحة ٢٧ سطراً ، ومتوسط ما في كل سطر عشر كلمات ، وفيها تصحيحات وحواش قليلة ، وللكتاب نسخة خطية أخرى في جامعة الإمام برقم ٤١٠٠ عن الأصل بمكتبة تشستربتي بدبلن بأيرلندا في ١٤٣ ورقة ، مكتوبة في حياة المؤلف سنة ٧٤٣هـ ، ومقروءة عليه ، ولكنها مخرومة من أولها ، وترجمة الشيخ فيها من (٨٥-٨٧) ، ولا فرق يذكر بين النسختين ، وكلا الترجمتين موجودتان في المقدمة بتمامهما . علماً بأن رؤوس العناوين من تصرفي .

ولادته وهجرته :

مولده في عاشر ربيع الأول ، سنة إحدى وستين وست مائة بحرَّان ، وتحول أبوه وأقاربه إلى دمشق في سنة سبع وستين عند جور التتار ؛

منهزمين ؛ يجرون الذرية والكتب على عجلة ؛ فإن العدو ما تركوا في البلد دواب سوى بقر الحرث ، وكلَّت من ثقل العجلة ، ووقف الفرار[1] ، وخافوا من أن يدركهم العدو ، ولجأوا إلى الله ، فسارت البقر بالعجلة ، ولطف الله تعالى ، حتى انحازوا إلى حد الإسلام .

شيوخه :

فسمع من: ابن عبدالدائم[2] ، وابن أبي اليُسر[3] ، والكمال ابن عبد[4] ، وابن أبي الخير[5] ، وابن الصيرفي[6] ، والشيخ شمس الدين[7] ، والقاسم الإربلي[8] ، وابن علان[1] ،

---

(١) الكلمة في الأصل غير واضحة ، ويمكن أن تقرأ : " الفران " ؛ بفاء ونون ، أو : " الغران " ؛ بغين ونون .

(٢) هو الشيخ زين الدين أحمد بن عبدالدائم بن نعمة المقدسي (٥٧٥-٦٦٨هـ) ، سمع عليه الشيخ " جزء ابن عرفة " كله وغيره وابن عبدالدائم هو مسند الشام ، صرح الشيخ بالسماع منه سنة ٦٦٧هـ في " الفتاوى " (٧٧/١٨) .

(٣) هو الشيخ تقي الدين إسماعيل بن إبراهيم بن أبي اليُسر التنوخي المسنِد (٥٨٩-٦٧٢هـ) ، صرح الشيخ بالسماع منه سنة ٦٦٩هـ في " الفتاوى " (٧٩/١٨) في " الأحاديث الأربعين " له .

(٤) هو الشيخ كمال الدين عبدالرحيم بن عبدالملك بن يوسف بن قدامة المقدسي المسنِد (٥٩٨-٦٨٠هـ) ، سمع منه الشيخ كما في " الفتاوى " (١٠٦/١٨) سنة ٦٨٠هـ .

وربما هو كمال الدين عبدالعزيز بن عبدالله بن شبل الدمشقي المسنِد (٥٨٩-٦٧٢هـ) ، سمع منه الشيخ سنة ٦٦٩هـ بجامع دمشق ، كما في " الفتاوى " (٧٨/١٨) .

(١) هو الشيخ المسند زين الدين أحمد بن أبي الخير سلامة بن إبراهيم بن الحداد الدمشقي (٦٠٩-٦٧٨هـ) ، قرأ الشيخ عليه سنة ٦٧٥هـ ؛ كما في " الفتاوى " (٩١/١٨-٩٢) .

(٢) هو الشيخ المسند أبو زكريا يحيى بن أبي منصور بن الصيرفي الحراني ، المتوفى سنة ٦٧٨هـ ، قَرأ الشيخ عليه سنة ٦٦٨هـ ؛ كما في " الفتاوى " (٨٥/١٨) .

(٣) هو الشيخ القاضي المسند شمس الدين عبدالرحمن بن أبي عمر محمد بن أحمد بن محمد بن قدامَة المقدسي الحنبلي (٥٦٨-٦٨٢هـ) ، سمع منه الشيخ سنة ٦٦٧هـ بجبل قاسيون ؛ كما في " الفتاوى " (٩٥/١٨-٩٦) .

(٤) هو الشيخ العدل المسند أبو محمد القاسم بن أبي بكر بن قاسم بن غنيمة الإربلي (٥٩٥-٦٨٠هـ) ، سمع منه الشيخ في سنة ٦٧٧هـ ؛ كما في " الفتاوى " (٩٢/١٨-٩٣) .

وخلق كثير[٢] ، وأكثر وبالغ .

وقرأ بنفسه على جماعة وانتخب ، ونسخ عدة أجزاء ، و " سنن أبي داود " ، ونظر في الرجال والعلل .

علمه ومكانته :

وصار من أئمة النقد ، ومن علماء الأثر ، مع التدين والنبالة ، مع الذكر والصيانة .

ثم أقبل على الفقه ودقائقه وقواعده وحججه والإجماع والاختلاف ؛ حتى كان يقضي منه التعجب إذا ذكر مسألة من مسائل الخلاف ، ثم يستدل ويرجح ويجتهد ، وحق له ذلك ؛ فإن شروط الاجتهاد كانت قد اجتمعت فيه ؛ فإنني ما رأيت أحداً أسرع انتزاعاً للآيات . الدالة على المسألة التي يوردها . منه ، ولا أشد استحضاراً لمتون الأحاديث وعزوها إلى الصحيح أو إلى المسند[٣] ، أو إلى السنن . منه ؛ كأن الكتاب والسنة نصب عينيه ، وعلى طرف لسانه ، بعبارة

---

(٥) هو الشيخ المسند أبو الغنائم المسلم بن محمد بن مسلم بن علان القيسي (٥٩٤-٦٨٠هـ) ، سمع منه الشيخ في سنة ٦٨٠هـ ؛ كما في " الفتاوى " (١٨/٩٧-٩٨) .

(٦) قال ابن عبدالهادي في " العقود الدرية " (ص٤) : " ... وخلق كثير ، وشيوخه الذين سمع منهم أكثر من مائتي شيخ ، وسمع " مسند الإمام أحمد بن حنبل " مرات ، وسمع الكتب الستة الكبار والأجزاء ، ومن مسموعاته " معجم الطبراني الكبير " ... وهذا كله وهو ابن بضع عشرة سنة ؛ فانبهر أهل دمشق من فرط ذكائه ، وسيلان ذهنه ، وقوة حافظته ، وسرعة إدراكه " إ . هـ .

وبالمناسبة ؛ فإن " الأربعين حديثاً " لشيخ الإسلام ابن تيمية رواها عن واحد وأربعين شيخاً وشيخة ، وقد رواها عنه تلميذه صاحب ترجمتنا هذه الإمام الذهبي وهي في " مجموع الفتاوى " كاملة (١٨/٧٦-١٢١) .

وقد وقع لي رواية " صحيح البخاري " من طريق شيخ الإسلام ابن تيمية وأئمة الدعوة السلفية من بعده :

فقد أخبرني الشيخ أبو محمد بديع الدين الراشدي السندي بها إجازة، أخبرني أبو محمد عبدالحق الهاشمي المكي ، أخبرنا أحمد بن عبدالله بن سالم البغدادي ، عن عبدالرحمن ابن حسن ، عن جده شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب ، عن عبدالله بن إبراهيم بن سيف النجدي المدني ، عن عبد القادر التغلبي ، عن عبدالباقي ، عن أحمد الوفائي ، عن موسى الحجازي ، عن أحمد الشويكي ، عن العسكري ، عن الحافظ عبدالرحمن بن رجب الحنبلي ، عن الحافظ شمس الدين ابن القيم ، عن الحافظ شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية الحراني ، عن الحافظ الفخر ابن البخاري ، عن أبي ذر الهروي المالكي ، عن شيوخه الثلاثة : المستملي السرخسي والكشميهني ، عن محمد بن يوسف الفربري ، عن الإمام صاحب " الصحيح " أبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري ، رحم الله الجميع ، ورفع درجتهم .

(١) بل ذكروا أنه يستظهر " مسند الإمام أحمد بن حنبل " الذي يحوي قريباً من ثلاثين ألف حديث ، وهذا ليس كثيراً عليه ؛ فقد قال ابن سيد الناس في وصف علمه : " ... وكاد يستوعب السنن والآثار حفظاً ... " (العقود الدرية ، ص ٩) .

رشيقة ، وعين مفتوحة ، وإفحام للمخالف .

وكان آية من آيات الله تعالى في التفسير ، والتوسع فيه ، لعله يبقى في تفسير الآية المجلس والمجلسين .

وأما أصول الديانة ، ومعرفتها ، ومعرفة أحوال الخوارج والروافض والمعتزلة وأنواع المبتدعة ؛ فكان لا يُشق فيه غباره ، ولا يلحق شأوه .

مكارم أخلاقه :

هذا مع ما كان عليه من الكرم الذي لم أشاهد مثله قط ، والشجاعة المفرطة التي يضرب بها المثل ، والفراغ عن ملاذِّ النفس من اللباس الجميل ، والمأكل الطيب ، والراحة الدنيوية .

تصانيفه :

ولقد سارت بتصانيفه الركبان في فنون من العلم وألوان ، لعلَّ تواليفه وفتاواه[1] في الأصول ، والفروع ، والزهد ، والتفسير ، والتوكل ،
والإخلاص ، وغير ذلك . تبلغ ثلاثمائة مجلد ، لا بل أكثر[2] .

=

ومن طالع تراجمه المنثورة في كتب أصحابه وتلاميذه ؛ رأى ما قلت قليلاً .

(١) وردت في أصل المخطوط (فتاويه) وأثبتنا الصحيح لغة .

(٢) مؤلفات شيخ الإسلام هي من الكثرة والانتشار ، حتى قال تلميذه الملازم له الإمام ابن القيم : " ... إني عجزت عن حصرها وتعدادها ..." (رسالة في أسماء مؤلفات ابن تيمية ، ص ٩) .

وكل من حاول جمع ما يجد لا يستطيع الاستيعاب ؛ فهذا ابن القيم ، وابن عبدالهادي ، والصلاح الصفدي ، وابن رجب ، وكل من جمع شيئاً منها ؛ فإنه قد فاته أشياء ذكرها غيره . والسبب في ذلك :

١ -كثرة فتاوى الشيخ ، فكل من جاءه باستفتاء أفتى له ، فذهب بهذه الفتاوى ؛ فلم تحصر !

٢ -تفرق طلاب الشيخ ، بما معهم من رسائله وفتاواه ، ولا سيما مع المناوأة والمطاردة وتباعد ديارهم !

٣ -أن الشيخ لا يحتفظ بأصول فتاواه ، بل يكتب لكل من طلب منه ثم تذهب .

٤ -المحن والفتن التي جرت عليه وعلى محبيه من بعده فوصلت إلى تراثه ومؤلفاته .

٥ -ما لقيته كتبه من المصادرة ، ومنع مطالعتها وتداولها ، وفي ذا ما نقله ابن كثير في البداية والنهاية في حوادث سنة (٧٢٨هـ) فقال في صدد كلامه على سجن الشيخ في القلعة وقرب موته : وفي يوم الإثنين تاسع جمادى الآخرة أخرج ما كان عند الشيخ

=

صفاته :

وكان قوَّالاً بالحق ، نهاءً عن المنكر ، لا تأخذه في الله لومة لائم ، ذا سطوة وإقدام ، وعدم

=

تقي الدين ابن تيمية من الكتب والأوراق والدواة والقلم ، ومنع من الكتب والمطالعة ، وحملت كتبه في مستهل رجب إلى خزانة الكتب بالعادلية الكبيرة (والشيخ توفي ليلة ٢٢ من ذي القعدة) . قال البرزالي :

" وكانت نحو ستين مجلداً وأربع عشرة ربطة كراريس ، فنظر القضاة والفقهاء فيها ، وتفرقوها بينه م " ؛ وذلك بسبب رده على الأخنائي في مسألة الزيارة ، وأقول لو جمعنا كل ما طبع للشيخ الآن لم يبلغ ستين مجلداً خطياً في هذه المدة القليلة ، فكيف إذاً بما كتبه في سائر حياته العلمية ؟!

ولابن القيم نظم في صدد تعداده مؤلفات شيخه ابن تيمية ووصفها ، قال في آخر ذلك :

وكذا قواعده الكبار وإنها	أوفى من المائتين في الحسبان
لم يتسع نظمي لها فأسوقها	فأشرت بعض إشارة لبيان
وكذا رسائله إلى البلدان وال	أطراف والأصحاب والإخوان
هي في الورى مبثوثةً معلومة	تُبتاع بالغالي من الأثمان
وكذا فتاواه فأخبرني الذي	أضحى عليها دائم الطوفان
بلغ الذي ألفاه منها عدة ال	أيام من شهر بلا نقصان
سفر يقابل كل يوم والذي	قد فاتني منها بلا حسبان
هذا وليس يقصر التفسيرُ عن	عشر كبار ليس ذا نقصان
وكذا المفاريد التي في كل مس	ـألة فسفر واضح التبيان
ما بين عشر أو تزيد بضعفها	هي كالنجوم لسالكٍ حيران

٦- سرعة كتابة الشيخ ، وكثير منها من حفظه ، أدت إلى كثرتها فيكتب لكل محتاجإلى كتابه في العلم ، قال ابن عبدالهادي في العقود الدرية ٤٧-٤٨ : " ... لو أراد الشيخ تقي الدين أو غيره حصرها لما قدروا لأنه ما زال يكتب ، وقد من الله عليه بسرعة الكتابة ، ويكتب من حفظه من غير نقل .

وأخبرني غير واحد أنه كتب مجلداً لطيفاً في يوم ، وكتب غير مرة أربعين ورقة في جلسة وأكثر ، وأحصيت ما كتبه وبيَّضه في يوم فكان ثماني كراريس في مسألة من أشكل المسائل ، وكان يكتب على السؤال الواحد مجلداً ، أما جواب يكتب فيه خمسين ورقة وستين وأربعين وعشرين فكثير ، وكان يكتب الجواب ، فإن حضر من يبيضه ، وإلا أخذ السائل خطه وذهب ... ويسأل عن الشيء فيقول : قد كتب في هذا ، فلا يدري أين هو ؟ فيلتفت إلى أصحابه ويقول : ردوا خطي وأظهروه لينقل ، فمن حرصهم عليه لا يردونه ، ومن عجزهم لا ينقلونه ، فيذهب ولا يعرف اسمه ؛ فلهذه الأسباب وغيرها تعذر إحصاء ما كتبه وما صنفه ...

لولا أن الله لطف وأعان ومنَّ وأنعم ، وجرت العادة في حفظ أعيان كتبه وتصانيفه لما أمكن لأحد أن يجمعها .

لقد رأيت من خرق العادة في حفظ كتبه وجمعها وإصلاح ما فسد منها وردِّ ما ذهب منها ، ما لو ذلؤته لكان عجباً ، يعلم به كل منصف أن لله عناية به وبكلامه ، لأنه يذبّ عن سنة نبيه ﷺ تحريف الغالية وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين ... " .

قال ابن الوردي في تاريخه ٤٠٩/٢ : " .. ويكتب على الفتوى في الحال عدة أوصال بخط سريع في غاية التعليق والإغلاق " .

٧- دروج فتاوى ومسائل كثيرة للشيخ ليس عليها اسمه ، وربما انتحلت عليه . انظر (العقود الدرية ، ص٤٨) .

مداراة الأغيار .

ومن خالطه وعرفه ؛ قد ينسبني إلى التقصير في وصفه ، ومن نابذه وخالفه ؛ ينسبني إلى التعالي فيه ، وليس الأمر كذلك .

مع أنني لا أعتقد فيه العصمة ، كلا ! فإنه مع سعة علمه ، وفرط شجاعته ، وسيلان ذهنه ، وتعظيمه لحرمات الدين ، بشرٌ من البشر ، تعتريه حدة في البحث ، وغضب وشظف للخصم ؛ يزرع له عداوة في النفوس ، ونفوراً عنه .

وإلا ؛ فلو لاطف الخصوم ، ورفق بهم ، ولزم المجاملة وحسن المكالمة ؛ لكان كلمه[1] إجماعاً ؛ فإن كبارهم وأئمتهم خاضعون لعلومه وفقهه ، معترفون بشفوفه وذكائه ، مقرون بندور أخطائه .

موقف الحاقدين منه :

لست أعني بعض العلماء الذين شعارهم وهجيراهم الاستخفاف به ، والازدراء بفضله ، والمقت له ، حتى استجهلوه وكفروه ونالوا منه ، من غير أن ينظروا إلى تصانيفه ، ولا فهموا كلامه ، ولا لهم حظ تام من التوسع في المعارف ، والعالم منهم قد ينصفه ويرد عليه بعلم .

اعتذار وتنويه :

وطريق العقل السكوت عما شجر بين الأقران . رحم الله الجميع .

وأنا أقل من أن ينبه على قدره كلمي ، أو أن يوضح نبأه قلمي ؛ فأصحابه وأعداؤه خاضعون لعلمه ، مقرون بسرعة فهمه ، وأنه بحر لا ساحل له ، وكنز لا نظير له ، وأن جوده حاتمي ، وشجاعته خالدية .

ولكن قد نقموا عليه أخلاقاً وأفعالاً ؛ فمنصفُهم فيها مأجور ، ومقتصدهم فيها معذور ، وظالمهم فيها مأزور ، وغاليهم[2] مغرور ، وإلى الله ترجع الأمور .

---

(١) الكلمة في الأصل غير واضحة ، فتحتمل ما سطرت ، أو كلمة أخرى : " كله " .

(٢) هكذا في الأصل ، وربما قرأت : " غالبهم " ، والأولى ما في المتن .

وكل أحد يؤخذ من قوله ويترك ، والكمال للرسل ، والحجة في الإجماع .

فرحم الله امرأً تكلم في العلماء بعلم ، أو صمت بحلم ، وأمعن في مضايق أقاويلهم بتؤدة وفهم ، ثم استغفر لهم ، ووسَّع نطاق المعذرة ، وإلا ؛ فهو لا يدري أنه لا يدري .

وإن أنت عذرت كبار الأئمة في معضلاتهم ، ولا تعذر ابن تيمية في مفرداته ؛ فقد أقررت على نفسك بالهوى وعدم الإنصاف .

دعوى تكفيره وبطلانها :

وإن قلت : لا أعذره ؛ لأنه كافر ، عدو الله تعالى ورسوله ! قال لك خلق من أهل العلم والدين : ما علمناه والله إلا مؤمناً محافظاً على الصلاة ، والوضوء ، وصوم رمضان ، معظماً للشريعة ظاهراً وباطناً .

لا يؤتى من سوء فهم ، بل له الذكاء المفرط ، ولا من قلة علم ، فإنه بحر زخار ، بصير بالكتاب والسنة ، عديم النظير في ذلك .

ولا هو بمتلاعب بالدين ؛ فلو كان كذلك ؛ لكان أسرع شيء إلى مداهنة خصومه ، وموافقتهم ، ومنافقتهم .

ولا هو يتفرد بمسائل بالتشهي ، ولا يفتي بما اتفق ، بل مسائله المفردة يحتج لها بالقرآن أو بالحديث أو بالقياس ، ويبرهنها ويناظر عليها ، وينقل فيها الخلاف ، ويطيل البحث ؛ أسوة من تقدمه من الأئمة ، فإن كان قد أخطأ فيها ؛ فله أجر المجتهد من العلماء ، وإن كان قد أصاب ؛ فله أجران .

وإنما الذم والمقت لأحد رجلين : رجل أفتى في مسألة بالهوى ولم يبد حجة ، ورجل تكلم في مسألة بلا خميرة من علم ولا توسع في نقل ؛ فنعوذ بالله من الهوى والجهل .

بين الأعداء والمحبين :

ولا ريب أنه لا اعتبار بذم أعداء العالم ؛ فإن الهوى والغضب بين الأعداء والمحبين يحملهم

على عدم الإنصاف والقيام عليه .

ولا اعتبار بمدح خواصه والغلاة فيه ؛ فإن الحب يحملهم على تغطية هناته ، بل قد يعدونها محاسن .

وإنما العبرة بأهل الورع والتقوى من الطرفين ، الذين يتكلمون بالقسط ، ويقومون لله ولو على أنفسهم وآبائهم .

فهذا الرجل[1] لا أرجو على ما قلته فيه دنيا ولا مالاً ولا جاهاً بوجه أصلاً ، مع خبرتي التامة به ، ولكن لا يسعني في ديني وعقلي أن أكتم محاسنه ، وأدفن فضائله ، وأبرز ذنوباً له مغفورة في سعة كرم الله تعالى وصفحه ، مغمورة في بحر علمه وجوده ؛ فإن الله يغفر له ، ويرضى عنه ، ويرحمنا إذا صرنا إلى ما صار إليه .

مع أني مخالفٌ له في مسائل أصلية وفرعية ، قد أبديت آنفاً أن خطأه فيها مغفور ، بل قد يثيبه الله تعالى فيها على حسن قصده ، وبذل وسعه ، والله الموعد .

مع أنني قد أوذيت لكلامي فيه من أصحابه وأضداده ؛ فحسبي الله .

وصف خَلْقه :

وكان الشيخ أبيض ، أسود الرأس واللحية ، قليل الشيب ، شعره إلى شحمة أذنيه ، كأن عينيه لسانان ناطقان ، ربعة من الرجال ، بعيد ما بين المنكبين ، جهوري الصوت ، فصيحاً ، سريع القراءة .

يعتريه حدة ، ثم يقهرها بحلم وصفح ، وإليه المنتهى في فرط الشجاعة ، والسماحة ، وقوة الذكاء .

ولم أرَ مثله في ابتهاله واستغاثته بالله تعالى ، وكثرة توجهه .

وقد تعبت بين الفريقين : فأنا عند محبه مُقصِّر ، وعند عدوه مُسرف

---

(١) يعني : شيخه المترجم له ابن تيمية .

مُكثر ، كلا والله !

وفاته وجنازته :

توفي ابن تيمية إلى رحمة الله تعالى معتقلاً إلى قلعة دمشق بقاعة بها ، بعد مرض حدَّ[1] أياماً ، في ليلة الإثنين ، العشرين من ذي القعدة ، سنة ثمان وعشرين وسبعمائة .

وصُلِّي عليه بجامع دمشق عقيب الظهر ، وامتلأ الجامع بالمصلين كهيئة يوم الجمعة ، حتى طلع الناس لتشييعه من أربعة أبواب البلد ، وأقلُّ ما قيل في عداد من شهده خمسون ألفاً ، وقيل أكثر من ذلك ، وحُمل على الرؤوس إلى مقابر الصوفية ، ودفن إلى جانب أخيه الإمام شرف الدين[2] ، رحمهما الله وإيانا والمسلمين . إهـ .[*]

قصيدة في رثاء شيخ الإسلام ابن تيمية للإمام الذهبي[3] قال فيها:

يا موت خذ من أردت أو فدع محوت رسم العلوم والورعِ

---

(١) هكذا في الأصل مهملة ، ولعلها : " جدّ أياماً " ؛ أي : اشتد المرض عليه ، وكلاهما يصلح .
وذكر ابن رجب في آخر ترجمته له في " الذيل " (ص ٤٠٥) : أنه مرض بضعة وعشرين يوماً .
وذكر في " العقود الدرية " (ص ٢٤٠) : أنه بقي في سجن قلعة دمشق سنتين وثلاثة أشهر وأياماً ، وهذا في سجنه الأخير .

(٢) هو أبو محمد عبدالله أخوه الأكبر ، مات في ١٤/٥/٧٢٧هـ ، وكانت جنازته أيضاً مشهودة .

(*) ليكن معلوماً أن العناوين الجانبية هي من عملي ، وليست من الأصول الخطية .

(١) هذه القصيدة ذكرها في " العقود الدرية " (ص ٢٨٨) مع مراث كثيرة قيلت في الشيخ . وبالمناسبة : تنسب للذهبي نصيحة ذهبية ، وقد قرأتها ؛ فإذا هي تناقض ما هاهنا من ترجمته له ، وأشك أصلاً في نسبتها إليه ، ولا سيما أن ناشريها هم خصوم الشيخ ، وهم متهمون ؛ فلا تجوز نسبتها إليه والحال هذه . والحمد لله على كل حال .

أخذت شيخ ا لإسلام وانفصمت عرى التقى واشتفى أولو البدعِ
غيبت بحراً مفسراً جبلاً حبراً تقياً مجانب الشبعِ
فإن يحدث فمسلم ثقة وإن يناظر فصاحب اللمعِ
إن يخض نحو سيبويه يفُهْ بكل معنى في الفن مخترعِ
وصار عالي الإسناد حافظة كشعبة أو سعيد الضبعي
والفقه فيه فكان مجتهداً وذا اجتهاد عار من الجزعِ
وجوده الحاتمي مشتهر وزهده القادري في الطبعِ
أسكنه الله في الجنان ولا زال علينا في أجمل الخلعِ
مع مالك والإمام أحمد والنعـ ـمان والشافعي والنخعي
مضى ابن تيمية وموعده مع خصمه يوم نفخة الفزعِ

نقد المؤلفات والمؤلفين عند شيخ الإسلام :

ولهذا الموضوع عناية ووضوح في تآليف شيخ الإسلام ابن تيمية وأجوبته وفتاواه كما أنه رحمه الله اطلع على كتب كثيرة من تصانيف السابقين سواء كانوا من علماء المسلمين أو غيرهم ، وكتبه ونقوله وإشاراته وتصريحاته كثيرة في ذلك .

وفي هذه المناسبة أَلفت نظر الباحثين إلى الاهتمام بهذا الموضوع لدى الشيخ رحمه الله ، وإن جمع كلامه ـ رحمه الله ـ المتفرق في كتبه ، على المؤلفين ومؤلفاتهم ومناهجهم وما فيها من حق

يُشاد به ، وباطل يُحذر
منه ، ومشتبه يُنتبه له ، لا سيما والمادة العلمية لهذا الموضوع موجودة وقريبة التناول [1] .

وها هنا أشير إلى موقف من مواقف الشيخ رحمه الله تجاه بعض العلوم ، وهو موقف قولي وفعلي ، يمثل غيرته الدينية وإنكاره للمنكر، وكمال عقله وفهمه وإدراكه ، ومواقفه تجاه كتب المضلين والدجالين كثيرة ، حيث حكى الحافظ ابن حجر العسقلاني في الدرر الكامنة ٣٩/٣ في ترجمة علي بن الحسن ابن عبدالله الجابي (ت ٧٠١هـ تقريباً) الخطيب بجامع الجراح بدمشق ، أنه أغري بالكيمياء وحصّل فيها كتباً كثيرة جداً ، وكان يزعم أنها صحت معه ، فلما مات توجه الشيخ تقي الدين ابن تيمية فاشترى منها جملة وغسلها في
الحال ، وقال : " هذه الكتب كان الناس يضلون بها وتضيع أموالهم فافتديتهم بما بذلته في ثمنها " .

والمقصود بالكيمياء وقتئذ ، علم يزعمون أنه يحول المعادن الخسيسة إلى معادن ثمينة ، ويفيد منه الدجاجلة والمشعوذون في التلبيس على أنفسهم وعلى الناس بما يفيدونه من مركبات تخفى على الناس حقيقتها .

فالشيخ رحمه الله اشتراها بماله ، ثم أتلفها بغسلها بالماء ليزول حبرها عن كاغدها فلا ينتفع بما كتب فيها .

❖ هل يمكن حصر مؤلفات شيخ الإسلام ؟

هذا السؤال في الحقيقة يطرح كثيراً . ولا سيما لدى المهتمين بل والمحبين لعلوم الشيخ رحمه الله . والجواب عليه فرع من تصور كثرة تصانيفه رحمه الله وتنوعها والظروف التي كتب فيها ، والمواقف التي حفتها في حياته

---

(١) وبهذه المناسبة فإن للشيخ رحمه الله رسالة في الموضوع تعنى بالكتب التي ينبغي العناية بها من قبل المبتدئين في العلم ، موسومة بـ " **الوصية في أحسن الكتب الشرعية** " وهي قيد التحقيق ، وللأخ الدكتور عبدالرحمن الفريوائي بحث في الموضوع مطبوع عنوانه " تراث المسلمين العلمي في نظر شيخ الإسلام ابن تيمية " وهو جهد مشكور .

وبعد موته .

والواقع أن جمع كل ما خطه قلم الشيخ وأملاه متعذر جداً ، فضلاً عما قُيّد عنه في دروسه أو مناظراته أو مباحثاته .

ولذلك أقر بهذا محبوه والمستفيدون من علومه ، وفي هذا يقرر الحافظ ابن رجب الحنبلي (ت ٧٩٥هـ) في كتابه الذيل على طبقات الحنابلة (٢/٣٨٧-٤٠٨) في ذكر تصانيفه :

" وأما تصانيفه رحمه الله فهي أشهر من أن تُذكر ، وأعرف من أن تُنكر ، سارت مسير الشمس في الأقطار وامتلأت بها البلاد والأمصار ، قد جاوزت حد الكثرة فلا يمكن أحداً حصرها ولا يتسع هذا المكان لعدِّ المعروف منها ، ولا ذكرها ...

وأما القواعد المتوسطة والصغار وأجوبة الفتاوى فلا يمكن الإحاطة بها لكثرتها وانتشارها وتفرقها .. " .

وتلميذه أبو عبدالله محمد بن رشيق (ت ٧٤٩ هـ) . الذي هو أعرف الناس بخط شيخه . أعتذر عن حصر مؤلفاته وتعدادها ، مع بذله وتسطيره لما استطاع من ذلك فقال في مقدمته " أسماء مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية " :

" أما بعد ، فإن جماعة من محبي السنة والعلم سألني أن أذكر له ما ألفه الشيخ الإمام العلامة الحافظ ، أوحد زمانه فريد العصر ، تقي الدين أبو العباس أحمد ابن تيمية رضي الله عنه ، فذكرت لهم أني أعجز عن حصرها وتعدادها ، لوجوه أبديتها لبعضهم ، وسأذكرها إن شاء الله فيما بعد " .

وسبق ذكر الحافظ الذهبي (ت ٧٤٨هـ) في ترجمته له من كتابه الذيل ما يصور كثرة فتاواه وقواعده وتواليفه من أنها " تبلغ ثلاثمائة مجلد ، لا بل أكثر". ونحوه في تذكرة الحفاظ ٤/١٤٩٦-١٤٩٨ .

وهذا تلميذه الحافظ محمد بن عبدالهادي المقدسي (ت ٧٤٤هـ) في مختصر طبقات علماء الحديث ٤/٢٧٩-٢٩٦ بعد ذكر جملة من كبار تصانيفه ، يقول :

" .. وعدد أسماء مصنفاته يحتاج إلى أوراق كثيرة ، ولذكرها موضع آخر ، وله من المؤلفات والفتاوى والقواعد والأجوبة والرسائل والتعاليق ما لا ينحصر ولا ينضبط ، ولا أعلم أحداً من المتقدمين ولا من المتأخرين جمع مثل ما جمع ، ولا صنّف مثل ما صنّف ، ولا قريباً من ذلك ، مع أن تصانيفه كان يكتبها من حفظه ، وكتب كثيراً منها في الحبس وليس عنده ما يحتاج إليه ويراجعه من الكتب " .

كما نقل عنه ابن عبدالهادي في " مختصر طبقات الحديث " أنها تفوق خمسمائة مجلد ، وأسباب ذلك في الحقيقة متنوعة ومتداخله وظاهرة وخفية ، فلله الأمر من قبل ومن بعد .

وأنقل بهذه المناسبة نظماً لأخص أصحاب الشيخ ابن تيمية به ، وأشدهم ملازمة له حضراً وسفراً ، تلميذه البار الوفي العلامة ابن القيم في قصيدته المشهورة بالنونية والموسومة بـ" الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية " دالاً بها على فضل علوم الشيخ ، ورسوخ قدمه وعلو قدره ، ومرشداً الحيارى ومبتغي الهداية والجمع بين المنقول والمعقول ، ووضوح عقيدة أهل السنة والجماعة ونصعها وصفائها وجلائها ، حتى صار بحق مجدد الدين والملة المحمدية في عصره وما بعده ، ذاكراً وواصفاً فيها مؤلفات شيخه الكبار ، ومشيراً إلى قواعده ورسائله وفتاواه القصار ، وفي هذا يقول ابن القيم في النونية ص ٢٦٨-٢٦٩ في شيخه ومؤلفاته :

قد أوحِشت منه ربوع زادها ... الجبار إيحاشاً مدى الأزمان

وخلت ديارهم وشُتِّت شملهم ... ما فيهم رجلان مجتمعان

قد عطل الرحمن أفئدة لهم ... من كل معرفة ومن إيمان

إذ عطلوا الرحمن من أوصافه ... والعرش أخلوه من الرحمن

بل عطلوه عن الكلام وعن صفا ... ت كماله بالجهل والبهتان

فاقرأ تصانيف الإمام حقيقة ... شيخ الوجود العالم الرباني

أعني أبا العباس أحمد ذلك الـ ... بحر المحيط بسائر الخِلجان

واقرأ كتاب العـ ... ـقل والنقل الذي ... ما في الوجود له نظير ثان

وكذاك منهاج له في رده ... قول الروافض شيعة الشيطان

وكذاك أهل الاعتزال فإنه ... أرداهم في حفرة الجبَّان (١)

وكذلك التأسيس أصبح نقضه ... أعجوبة للعالم الرباني

وكذاك أجوبة له مِصريَّة ... في ست أسفار كتبن سمان

وكذا جواب للنصارى فيه ما ... يشفي الصدور وإنه سفران

وكذاك شرح عقيدة للأصبها ... ني شارح المحصول شرح بيان

فيها النبوات التي إثباتها ... في غاية التقرير والتبيان

والله ما لأولي الكلام نظيره ... أبداً وكتبهم بكل مكان

وكذا حدوث العالم العلوي والسـ ... ـفليِّ فيه في أتم بيان

وكذا قواعد الاستقامة إنها ... سفران فيما بيننا ضخمان

وقرأت أكثرها عليه فزادني ... والله في علم وفي إيمان

هذا ولو حدثت نفسي أنه ... قبلي يموت لكان غير الشان

---

(١) المقبرة والصحراء ، كما في القاموس .

وكذاك توحيد الفلاسفة الألى توحيدهم هو غاية الكفران

سفر لطيف فيه نقض أصولهم بحقيقة المعقول والبرهان

وكذاك تسعينية فيها له رد على من قال بالنفساني

تسعون وجهاً بينت بطلانه أعني كلام النفس ذا الوحدان

وكذا قواعده الكبار وإنها أوف من المائتين في الحسبان

لم يتسع نظمي لها فأسوقها فأشرت بعض إشارة لبيان

وكذا رسائله إلى البلدان وال أطراف والأصحاب والإخوان

هي في الورى مبثوثة معلومة تبتاع بالغالي من الأثمان

وكذا فتاواه فأخبرني الذي أضحى عليها دائم الطوفان

بلغ الذي ألفاه منها عدة ال أيام من شهر بلا نقصان

سفر يقابل كل يوم والذي قد فاتني منها بلا حسبان

هذا وليس يقصر التفسير عن ع شر ك .بار ليس ذا نقص ـ ان

وكذا المفاريد التي في كل مس ـألة فسفر واضح التبيان

ما بين عشر أو تزيد بضعفها ه .ي ك .النجوم لسالك ح ـ يران[1]

---

(١) نونية ابن القيم " الكافية الشافية " ص ٢٦٨-٢٦٩ .